اثر المهاجرين السوريين

في النهضة الشرقية الحديثة

قرأت ما كتبهُ حضرة الباحث المدقق الاستاذ محمد كرد علي في مقتطف فبراير الاخير عن هذه النهضة واثر المهاجرين السوريين فيها . ثم قرأت ما خطتهُ ايضاً يراعة الكاتب الكبير الامير شكيب ارسلان في ذلك الجزء نفسهِ من المقتطف فكدت احجم عن استئناف البحث في هذا الموضوع لان كلا الكاتبين الفاضلين وفاهُ حقهُ من الشرح والتفصيل

ولكن طالبًا لا يرد يرى « انني من المهاجرين الذين درسوا احوالهم واحاطوا باثرهم في تكوين هذه النهضة ولذلك فلا مناص من تحبير فصل خاص عنهم اتماماً للفائدة »

فوفرة عدد المهاجرين السوريين ، وما احرزوهُ من مال وعلم واختبار ، مع ما تعلم من شدة تعلقهم بوطنهم الاصلي — كل هذا يجعل المهاجرة عاملاً لا يستهان بهِ في تكوين هذه النهضة وفي انعاشها وتقويتها

وتمهيداً لما احاول بسطهُ في هذا المقال اذكر ما قرأتهُ من عهد قريب لعالم خطير من علماء الاجتماع الاميركيين وضع قاعدة بشأن المهاجرة والمهاجرين ورد فيها ان المهاجرين من اي جنس و بلاد يكونون في اغلب الاحيان اشدّ وطنية من المتخلفين . ومما استشهد بهِ ما رآهُ في المهاجر البريطاني والطلياني والالماني والفرنساوي وغيرهم وخصوصاً في اثناء الحرب الكونية الاخيرة

ليس من السهل على كاتب عربي مثلي ان يقول بصحة هذه القاعدة او فسادها ولاسيما فيما يتعلق بالمتخلفين . ولكن من السهل عليهِ ان يجاري الشاعر العربي فيردد قولهُ الخالد

كم منزلٍ في الارض يألفهُ الفتى وحنينهُ ابداً لاول منزلِ

كذلك ارى انهُ ليس من السهل على الكاتب مهما اكان مهاجراً او متخلفاً ان يثبت او ينفي كون سورية لنا وطناً بالمعنى الدولي المعروف . ولكن ليس من الصعب عليهِ ان يتمنى؟

ان انسَ فلن انسى تلك القشعريرة التي اخذتني ساعة قرأتُ لاستاذي المحقق سعادة السر سعيد شقير باشا ان السوري لا وطن لهُ . (راجع في المقتطف خطبتهُ القيمة في الجامعة الاميركية ببيروت في احتفالها السنوي مجلد ٦٧ ص ١٢٠ و٢٥٧) على انني ممن يعللون النفس بالآمال — وما اضيق العيش لولا فسحة الامل — فما على الله شيء عسير

والشرق كان وما برح بلاد العجائب والغرائب . ولطالما فوجئ العالم بالانقلابات دينية وسياسية واجتماعية قام بها ابناء الشرق في مختلف العصور فغيروا الظنون بهم — وغيروا مجرى التاريخ

على انهُ مهما اختلفنا في هل المهاجر اشد وطنيةً من المخلف ، او في هل للسوري وطنٌ ام لاوطن لهُ ، لكننا لا نختلف في حقيقة راهنة هي ان النهضة الحديثة الشرقية امرٌ واقعٌ ملموس ، وان للمهاجرين السوريين اثراً بيناً فيها ، ماديًّا ومعنويًّا

وما الكلام على المهاجرين في هذا المقام سوى استمرار الكلام عن الاحتكاك بالاجانب الذي اوجزت شرحهُ في مقالي السابق في مقتطف ابريل الاخير . وانت تعلم ان حياة المهاجرين واسباب معايشهم تضطرهم الى ذلك الاحتكاك يوميًّا . والحوادث المختلفة التي تقع كل ساعة على مرأى منهم ومسمع . في كل مهاجرهم من اليابان والفيليبين في الشرق الاقصى الى اوربا والقارتين الاميركيتين غرباً مما يزيد في حنينهم الى وطنهم الاصلي . ومما يدفعهم الى مشاركته مشاركة فعلية بالسراء والضراء . ان لم يكن بفعل الشعور والعواطف فبفعل الغيرة والتقليد والاقتباس

ما لنا ولذكر العواطف في هذا المقام وغالباً عمَّا هو معلوم عن الشرقيين عمومًا انهم اسهل انقياداً واسرع خضوعاً لسلطان « القلب » منهم لسلطان العقل . ولنحصر الكلام في القان السوري التشبه والاخذ عن الغير

فما الذي يشاهدهُ السوري يا ترى في ديار غربته (في اميركا) مما يحملهُ على تمادي السنين محبًّا لوطنه راغباً في اسعاده وساعياً جهدهُ لانهاضه

يرى المهاجر السوري صباح كل يوم وهو في طريقه الى عمله الوفًا مؤلفة من الطلبة بين ذكور واناث واقفين في ساحات المدارس العمومية امام اعلامهم الوطنية يحيونها باحترام يقرب من العبادة و ينشدون امامها اناشيد حماسية تغرس في افئدتهم حب وطنهم وتفضيلهُ على سواه

يرى الالوف من الفتيات والفتيان يصغون في اعيادهم الوطنية الى خطباء يشرحون لهم فضائل الابطال الذين سمت تلك الاعياد باسمائهم وتحبب الى هذا النشء الجديد التجمل بتلك الفضائل والمميزات واولها حب الوطن والتضحية في سبيله

يرى منهم المباهاة بوطنهم ولو كان من الجمهوريات الصغرى التي لا شأن يذكر لها في المجتمع السياسي والعائلة الدولية

يرى في اعيادهم الاستقلالية جماهير لا تحصى ولا تعد تموج في الشوارع والحدائق والساحات وامام بنايات الحكومة وعليها كلها « لباس العيد » تترنح اعطافها طرباً وترقص اقدامها سروراً وجذلاً وهي تنشد ابلغ ما انتجته قرائح المجيدين من شعرائها من الاغاني الوطنية . وقيل رؤيتها سكراً امام اجواق متعددة من موسيقيين ماهرين يعزفون و ينشدون و يكررون اغاني وانغاماً هي افعل من المدام — في ارق ما وضعهُ الفنيون الاختصاصيون من موسيقى تستهوي كما بسحر ساحر فتتلاعب بالقلوب — و بالعقول — وتجعل تلك الموجات البشرية كأنها سكرى تحلق بالروح في سماء الوطنية وتخرج من اعماق القلوب اصواتاً تصل الى عنان السماء وهي تكرر تلك اللفظة الحلوة العذبة : بلادي ! بلادي !

اعرف رجلاً سورياً عندما شاهد لاول مرة عيد الاستقلال الاميركي اخذ يبكي...

لست الآن في موقف يسمح لي بتحليل عواطف ذلك السوري وشعوره (دقيقتئذٍ) تحليلاً علمياً بسيكولوجياً ولكنني في موقف يجيز لي ان اعبّر فيهِ عن فكر كل مهاجر واقول بلسانهِ

« بلادي . وان جارت عليَّ .... عزيزة »

هذا شيء من المؤثرات الايجابية التي تجعل السوري المهاجر على الشبه والتحدي . اما المؤثرات السلبية فافعل وابقى لانها امرٌ وأدهى

***

وقع نظري قبيل كتابة هذه السطور على ترجمة (اوجين ثن) وزير الخارجية حالاً في الصين فزدت رسوخاً في عقيدة بنيت عليها كلامي في هذه المباحث وهي ان احتكاك الشرقي بالغربي من اقوى العوامل على إنماء الوطنية فيهِ ان لم يكن اقواها وافعلها

قضى هذا الزعيم الشرقي معظم حياتهِ في بلاد الغربة حيث رأى في المستعمرات بام العين تلك الاساليب المنكرة التي تمادى الغربيون في الجري عليها ضد الشرقيين فثار ثائر غضبهِ وعاد الى بلادهِ ملتزماً حتى التضحية في سبيل تحريرها وانهاضها

وترجمة غاندي في المقتطف حديثة العهد نوعاً ومنها يستنتج القارئ اللبيب الباعث الجوهري الذي بعث ذلك الرجل العظيم الى التضحية بما ضحى بهِ لاجل الهند بلادهِ

والمطلع على تاريخ مؤسس النهضة الصينية الحديثة المرحوم الدكتور (صن يات سن) يرى ان القوى سبب في دفعهِ الى العمل هو مكثهُ مدة طويلة في اميركا الشمالية حيث

تلقى علومهُ في كلياتها مع امرأتهِ . وهذه لا تزال حتى الساعة اذا ما خطبت في قومها يكون عدد السامعين ثلثماية الف نسمة فما فوق حسب نشرات التيمس آخراً ورسمت

و يعوزني المجال لاذكر ولو موجزاً ما فعلهُ ابطال تركيا الجديدة ولكنني اجمل فاقول ان احتكاكهم بالغرب و بالغربيين كان اقوى عامل في نهضتهم الحديثة

والسوري لا يقل استعداداً للعمل وحبًّا للحرية والاستقلال عن التركي والهندي والصيني والياباني وغيرهم من الشرقيين . ولا اقول انهُ ربما فاقهم في هذا المضمار لانهُ ارجح عقلاً واعزّ نفساً واوفر استعداداً بمفردهِ لئلا أُتَّهم بالتحيّز . ولكنني لا اجد بدًّا من القول ان السوري رقيق الشعور رقيق الاحساس يحب الحرية و يعشق الاستقلال . وانهُ في مهاجرهِ يرى يوميًّا كما لمعت آنفاً ما يُوقظ فيهِ عاطفة الوطنية . ومن كان مثلهُ قويًّا ولو بمفردهِ لا يمكن ان يبقى ابد الدهر جاهلاً معنى التضامن القومي والاتحاد الوطني الذي بهِ وحدة المجموع وقوتهُ . لا يمكن ان يجهل فائدة القاعدة « الكل للواحد والواحد للكل » — لا يمكن ان يبقى الى ما شاء الله مستكنًّا مستنيماً وغيرهُ من الجيران مستيقظ مستبسل . بل لا بدَّ لهُ يوماً من السعي والعمل ان لم يكن اقتناعاً فاقتباساً واقتداء

ولما كان الكلام مقصوراً في هذا المقال على المهاجرين الى اميركا اقول ان اسباب الاقتداء والتشبه والغيرة بين المهاجرين متوافرة . فالمهاجر السوري يرى اينما حلَّ ان حكومة البلاد التي يستوطنها لا تقبل الاجنبي في مناصب الحكومة مثلاً حتى الحقيرة منها ولو كان هذا على اتم الكفاءة لها

يراها في المدارس تجعل التعلم بلسانها القومي اجباريًّا ولا تنصّب اساتذة الاَّ من الوطنيين الصميميين . يرى اللغة الوطنية هي السائدة . يرى ارباب المناصب والمستخدمين في الشركات الاجنبية والمصارف الاجنبية جلهم من الوطنيين . وهذه ايضاً كالمدارس والجمعيات والنقابات خاضعة لسيادة الحكومة المحلية خضوعاً كليًّا

يرى « الروح » الوطنية ترفرف على الوطنيين خاصة وتميز بينهم و بين الاجانب في الاندية والجمعيات العلمية والادبية والفنية والرياضية والاجتماعية — ولا يحسبني القارئ الشرقي مبالغاً اذا قلت بان تلك « الروح » تميز بين الوطني والاجنبي حتى في امور العبادة وشؤون الدين . ولو كان الوطني والاجنبي كلاهما من مذهب ديني واحد

يرى الحكومة تجهر علناً بحماية المصنوعات الوطنية ولو كانت لا تضاهي المصنوعات الاجنبية . يراها تحمي الطبيب الوطني والمهندس الوطني والمحامي الوطني بما ترسمهُ على

الاجنبي من امتحانات ونفقات لا قبل لاي كان بها لان القصد منها حماية الوطني من مزاحمة الاجنبي بكل الوسائط

يرى الشوارع والساحات والحصون والقلاع والقرى والمحطات والمدارس مسماة كلها باسماء وطنية بحتة لا أثر فيها لاسماء اجنبية الا فيما ندر والنادر لا يُقاس عليه

يرى الحكومة والشعب والصحافة والاحزاب تكاد باقل من لمح البصر حالما تبرز مسئلة خارجية تهم البلاد. والويل ثم الويل للاجنبي الذي تسوّل له نفسه التعرض والتدخل. فانهم حتى في ثوراتهم الداخلية وهم يعملون السيوف بعضهم برقاب بعض ينسون حالاً ثاراتهم ومنازعاتهم الداخلية ويتفقون على الاجنبي المتدخل سواء اتفاقهم هذا متين لا تشوبه شائبة ولا يزعزعه وعد او وعيد من الخارج. وهكذا فلا يجسر اجنبي مهما كان قويًا او معتزًا ببسطوة دولته وجاهها على الافتكار بمثل ذلك ولا على التدخل باي شأن من شؤون البلاد. وخصوصًا الحيوية منها

يرى السوري المهاجر هذه الامور واشباهها كل يوم فيقابل بينها وبين ما يعلمه عن حالة وطن مستضعف يتوكل ويُدم فلا يتمالك من التأوه والتحسر وبضدها تتبين الاشياء

وبديهي ان العواطف كالبركان لا بد لثائرها يومًا من ان يهيج فيظهر منه ما بطن. ومثل هذه العواطف النبيلة الوطنية ظاهرة للعيان في جرائد المهاجرين ومجلاتهم ومؤلفاتهم وخطبهم واشعارهم — في صحافة قوية مهما تباينت آراؤها وتضاربت غاياتها واختلفت في نزعاتها ومناحيها فانها كلها بلا استثناء متفقة على الامر الرئيسي الذي انا بصدده وهو حب الوطن وتشويق المهاجرين الى التضحية في سبيل إنهاضه واسعاده ورقيه

واذ ان الشيء بالشيء يذكر اقول انك قلما تدخل بيتًا من بيوت المهاجرين في هذه الايام ألا تجد فيه المقتطف او الهلال او المباحث او مجلة السيدات والرجال وغيرها من المجلات العربية التي اشتهرت بخدمة اللغة والقومية وهذا ايضًا له نصيبه من الفعل المعنوي

زد على ذلك ما اقرأه حينًا بعد آخر عن سخاء فريق من افاضل المهاجرين في اميركا الشمالية والجنوبية في سبيل العلم. ففي كليات بيروت واميركا عدد غير قليل من الشبان السوريين يعملون على نفقة اولئك الافاضل

ومثل ذلك اقول عن المدارس السورية في المهجر ففضلها على اللغة والقومية لا يقل عن فضل الصحافة. ولقد دهش سمو البرنس محمد علي يوم زار هذه البلاد في العام الماضي من وفرة المعاهد العربية وحثّ على الاستزادة منها

والجمعيات السورية للمهاجرين منتشرة حتى في القرى والقساكر وهي ترمي الى غرض شريف هو خدمة الاسم السوري . ولها كلها فضل عظيم في اسعاف الوطن السوري عند الملمات وحلول المصائب — وما اكثر حلولها في تلك البلاد المنكودة الحظ — والاعانات المالية الطائلة والمتتالية التي ارسلها المهاجرون في ايام الحرب العظمى وبُعيد تلك الحرب وفي الثورة الحالية دليل محسوس ليس على اريحيتهم فحسب بل على صدق وطنيتهم ايضاً

ولا حاجة الى ذكر الاموال الوفيرة التي انفقها المهاجرون في التشييد والتجديد يوم كانوا يعودون الى سوريا فآثارها في التحسين والاصلاح بادية للعيان . هذا فضلاً عما يأخذهُ المهاجرون معهم من افكار حرّة ، وآراء عصرية ، ومبادئ متجددة منتخبة ، ومعلومات جديدة ومعارف نافعة — فذلك كلهُ يعين على تعميم الاستنارة بنور العلم والعرفان ، وعلى التحرر من قيود الجهل والتعصب والتواكل والاستسلام

واني لعلى يقين بان الكثيرين من المهاجرين لا يترددون لحظة في امر الرجوع نهائياً الى سورية فيما لو اتاح الله لها حالة مستقرة مرضية . اعتبر ذلك بما بدا منهم يوم اعلان الدستور العثماني وحال انتهاء الحرب الكونية الاخيرة . ولطالما جاهر السوري في مختلف المواقف برغبتهِ في استثمار امواله في وطنهِ الاصلي في مشاريع زراعية او تجارية او صناعية فضلاً عن رغبتهِ في مناصرة المشاريع الخيرية والتهذيبية والعلمية

واراني غير مخطىء اذا ما قلت ان كثيرين من المهاجرين يعودون الى الوطن على اتم هذه الرغبة حالما يوقنون بان القاعدة الاساسية للحكم التي وضعها الفيلسوف سقراط معمولٌ بها وهي (الامن ، والعدل) . فهل يقيّض الله للسوري المهاجر ان يعود يوماً الى وطنهِ لينتفعهُ بمالهِ وعلمهِ واختبارهِ ام هل يبقى ذلك الوطن المفدّى كرةً تتقاذفها سوالجة المطامع الخارجية والمنازعات الداخلية ذلك في علم الله وحدهُ . وهو علاّم الغيوب

سان باولو ، برازيل — الدكتور سعيد ابو جمره

[المقتطف] وبديهي ان كل ما ذكرهُ حضرة الكاتب في هذه المقالة انما خصَّ به المهاجرين الى اميركا ونحوها لا المهاجرين الى القطر المصري لان هؤلاء يحسبون سورية ومصر شقيقتين او بلاداً واحدة كما كانا في كثير من عصور التاريخ وكما نرجو ان تعودا يوماً ما